الحج إعلان بتمام نعمة الله على الإنسان

نلاحظ أن كثيراً من غير المؤمنين يأخذون على المؤمنين أنهم حين يحُج الواحد منهم يخص نفسه بلقب هو: الحاج فلان، ويرون ذلك شيئاً من التعالي برُكْنٍ من أركان الإسلام لم يوجد في المصلي فلان ولا في المزكي فلان، ولكن نقول: الحاج فلان.

نقول له: لا.. إن هذا إعلان بتمام نعمة الله على الإنسان وتمام نعمة الله في عطاء الربوبية يناسبه تمام نعمة الله في تكليف الألوهية؛ لأنك ما حججت إلا عن قدرة، وما حججت إلا عن غنى وعن فائض مال، وما حججت إلا عن أمن طريق.

وتلك هي استكمالات وسائل الحياة. فكأنك حين تقول: «الحاج فلان» يعني: تُعْلِمُ أن الله أنعم عليه إنعاماً اتسع له إيماناً برسوله ﷺ وإقامة للصلاة، وأداءً للزكاة؛ لأنه ما دام قد قدر له الاستطاعة على أداء فريضة الحج فلا بد أن يكون قد زكى، وما دام قد قدر أن يحج فلا بد أنه صام.

إذن.. فكلمة: «الحاج فلان» دلّت على أن المؤمن أصبح مستوفياً لكل أركان الإسلام؛ لأن الله وفاه من عطاء الربوبية ما يجعله أهلاً؛ لأن يكون مؤدياً لها.

وهذا يلفتنا إلى شيء من رحمة الله بالخلق، فمثلاً: الإيمان الذي لا يتكلف مجهوداً ولا طاقة ولا حمل ظهر؛ لأنه يقين في القلب، واليقين في القلب لا يثقله ولا يتعبه وإنما يملؤه فقط إشراقاً ويملؤه نوراً، ولكن الصلاة التي تتطلب من الإنسان حركة من قيام وقعود وقراءة وتسبيح الله سبحانه وتعالى على قدر ما أعطى من عطاء الربوبية كلف بعطاء الألوهية، فهذا يصلي قائماً، ومن لم يستطع صلى قاعداً، ومن لم يستطع صلى نائماً، ومن لم يستطع صلى بإيماء، ومن لم يستطع صلى بخواطر يمررها على قلبه.

إذن... فالله لا يكلف تكليفاً بألوهيته إلا على مقدار ما أعطى من نعم ربوبيته. فمثلاً الذي لا يكون عنده مال يصل إلى حد النصاب ويزيد عنه: لا يُطلب منه أن يُزَكِّي، والمسافر والمريض يرخص لهما في عدم الصيام، والذي يُسافر:

يقصر الصلاة. كل هذا دليل على أن عطاء الألوهية في التكليف مناسبٌ لعطاء الربوبية في التشريع.

إذن . . فالحج حينما ننظر إليه نجده موافقاً لما نزل فيه من قول الله سبحانه: ﴿ ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا ﴾ [المائدة: ٣] لأنكم بمجيئكم في هذا قد استوفيتم كل نِعَم تكوين حياتكم: قدرة بدن، وقدرة رزق، وأمن طريق.

إذن . . فذلك هو الإتمام، وكأن الله تعالى يقول: لم أكلف إلا على قدر ما أعطيت من عطاء ربوبية، فإذا شاءت حكمتي أن أنقصك شيئاً من عطاء الربوبية فمن حكمتي أيضاً ورحمتي أن أنقصك شيئاً من التكليف.

ولذلك قلنا: إنه يجب أن نفهم أن أركان الإسلام ليست هي أركان المُسْلم.

أركان الإسلام يعتقدها المسلم، ولكن ينفذها سلوكاً هي شيء واحد: أن نؤمن بالله وأن نؤمن برسوله وأن نصلي. وأن نزكي إن كان عندنا فائض، ونصوم إن كانت لنا قدرة، وأن نحجّ إن كانت لنا استطاعة، فقد يكون الشيء ركناً في الإسلام ولكنه ليس ركناً في المسلم.

ولكن بالحج استوفى الإنسان كل أركان الإسلام فأدى مطلوبات الألوهية بافعل كذا ولا تفعل كذا؛ لأن الله أدى له كل نعم الوجود في حركات حياته بما لا يدع له مجالاً للتخفيف عنه.

والحق سبحانه وتعالى حين يطلب منا إقامة هذه الأركان إنما يطلب منا السوية في التكوين الإنساني المراد لله تعالى، وهو الاستخلاف في الأرض.

والخلافة معناها: أن الله استخلفه لعمارة هذا الكون؛ ولكن الحق سبحانه وتعالى يتحمل عنه مقومات حياته، فلا يطلب منه في مقومات الحياة الأساسية شيئاً لأنه يهبها له.

فمثلاً: الشمس تشرق. الهواء يمر. المطر ينزل، الأرض بعناصرها تعطيك ما قدره الله تعالى فيها؛ وتعطيك الزرع.

وبعد ذلك إن أردت أن ترتقي أنت في فطرية الحياة ارتقاء فأعمل طاقاتك المخلوقة لربك في الأرض المخلوقة لربك.

وإن أردت أن تعيش كما تعيش الأنعام تأكل مما تنبت الأرض، وتشرب مما ينزل من السماء فَعِشْ عيشة الفقر، عش عيشة الكسالى الغير منتجين.

أما إن أردت أن تُسْعِد نفسك إسعاداً آخر فانفعل مع الأشياء التي خلقها اللَّه تعالى لك والأشياء التي خلقها اللَّه للإنسان لو نظرنا إليها لوجدناها: شيئاً يعطيك إن طلبت منه. والشيء الذي يعطيك وإن لم تطلب منه. وتستطيع بعد ذلك أن ترقى رُقِيّاً آخر فيعطيك إن طلبت منه.

ثلاث مراحل: فالأشياء التي تعطيك مثلاً وأنت لا تطلبُ منها كالمطر. فأنت لا تطلب المطر، بمعنى أن نقول له: انزل لي. ولكن اللَّه ينزله لك. كذلك لا تطلب ضوء الشمس حرارة ودفئاً ونوراً وإشراقاً... إلخ، بل اللَّه يأمرها فتعطيك، وكذلك لا تطلب من عناصر الأرض شيئاً بل هي تعطيك بإذن ربها ما شاء لها أن تعطيك.

ولكنك تجد شيئاً آخر إن انفعلت فيه انفعل لك.

فالأرض مثلاً إن بذرت فيها ورويتها: أَعْطَتْك وإن لم تفعل: لا تعطيك.

إذن.. ففي الكون أجناس تعطيك وإن لم تطلب منها، وذلك الناس فيه سواء؛ وأشياء إن انفعلت معها انفعلت لك وأعطتك.

وبهذا يختلف الناس قوة وضعفاً وحضارة وارتقاء؛ فالذين ينفعلون فيما ينفعل لهم هم الذين يسودون. فالذي يحرث الأرض ويزرعها، ويروي الزرع ويحرص على أن يضع في الأرض البذرة التي تناسبها يرتقي.

والذي يعطيك وإن لم تطلب منه إذا انفعلت معه انفعل معك وأعطاك شيئاً جديداً ترتقي به؛ وخذ مثلاً: حينما عزت الطاقة على الناس وفكروا في بديل للطاقة؛ كان في البداية: الخشب والحطب، ثم الفحم، ثم البنزين... وكل هذه وسائل طاقة، ثم فكر وارتقى وأخذ الطاقة من الشمس.

إذن.. فالشمس كانت تعطيك وإن لم تطلب منها، ولكن بالارتقاءات الثانية أصبحت تعطيك إن طلبت منها، تأخذ من حرارتها الزائدة وتخزن وتستفيد منها. تلك عطاءات من عطاءات الربوبية للخلق جميعاً. وباختلافهم في هذا يختلفون رقياً وحضارة وارتقاء.

الإنسان منا حين ينفعل فيما ينفعل له يأخذ خيراً من خير الوجود فوق الآخر. هذا الذي يأخذ من خير الوجود فوق الآخر لن يأكل ببطنين، ولن يأكل بفمين، وإنما هي وجبة كوجبة الآخر.

إذن.. فأين يذهب الأمر الزائد؟ الأمر الزائد لا بد أن يفيض قهراً عنه رضي أو لم يرض إلى الغير.

إذن . . فكل حركة من حركات الوجود هي نافعة؛ تحرك بها مؤمن، تحرك بها كافر، تحرك بها طائع، تحرك بها عاص.

إلا أن الفاعل إن جعل في باله اللّه تعالى الذي وهب له هذا يأخذ ثواباً عظيماً في الدنيا والآخرة، وإن لم يجعل اللّه تعالى في باله يأخذ حظه من الدنيا، ولا نصيب له في الآخرة.

في الإسلام المساواة . . وعدم التعالي

حين يتعالى الناس بالأشياء، يريد الحق سبحانه وتعالى أن يخلعهم خلعاً من تعاليهم، حتى يضمن تعادل الخلق. ومعنى تعادل الخلق: الاستطراق الأدبي في الكون، ومعنى الاستطراق الأدبي أن لا يتعالى أحد على أحد؛ لأنك إن تعاليت على أحد بمظهر من مظاهر حياتك فانظر: أهذا المظهر ذاتي فيك أم موهوب من الله تعالى لك؟ والفرق بين الذاتي والموهوب أن الذاتي يظل معك والموهوب يمكن أن يُسْلَبُ منك.

فإن تعالى واحد على واحد بقوةٍ، أتدوم له قوته هذه؟ أم من الممكن أن يضعف غداً؟

ولو تعالى واحد على واحد بِغِنًى، أمن الممكن أن يدوم له غناه هذا؟ أم من الممكن أن يذهب عنه غداً ويصير فقيراً يسأل الناس؟

إذن.. فكل أمر ليس ذاتيّاً فإن الله تعالى يضع في تشريعه وفي منهجه ما يدرك هذا التعالي. هذا التعالي الذي نسميه «الأغيار»، ومعنى الأغيار: هي الأشياء التي لا تثبت عند مكون واحد.

وما دامت لا تثبت عند مكونٍ واحد، فلا بد أن يكون لها مكون أعلى من ذلك الواحد.

إذن.. فكل وسائل تعالي الإنسان ليست ذاتية فيه وإنما هي موهوبة من الله تعالى.

فيشاء الحق سبحانه وتعالى بما شرع من أركان الإسلام أن يضمن ذلك ليظل الإنسان مستخلفاً في الأرض، ليس أصيلاً فيها؛ لأن الذي يفسد الكون أن الإنسان يظن أنه أصيل، فيستغني.

فنقول له: إن كنت أصيلاً فحافظ على مقومات تعاليك! وما دمت لا تستطيع أن تحافظ على مقومات تعاليك فلست أصيلاً. واقرأ قول الله تعالى: ﴿كَلَّآ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَيَطْغَىٰٓ ۝٦ أَن رَّءَاهُ ٱسْتَغْنَىٰٓ ۝٧﴾ [العلق].

فما دمت استغنيت بشيء ليس ذاتياً فيك فتأدَّب بعض الشيء، وإذا تأدبْتَ بعض الشيء فستذكر الواهب لك، وإذا ذكرت الواهب لك فستنفذ منهجه.

ولذلك كانت أول الأركان أن نشهد أنه لا إله إلا اللَّه وحده لا شريك له؛ خاضعين لأوامره. وما دمنا أنا وأنت خاضعين لإله واحد فذلك أول مظهرية من مظاهر التساوي، وما دمنا تساوينا في هذه فالحق سبحانه وتعالى يدعونا إلى إعلان هذا التساوي في أول ركن من أركان الإسلام بعد الشهادتين، وهو الصلاة.

فإذا نودي للصلاة سعى الناس جميعاً إلى بيت اللَّه ليؤدوا الصلاة وسعى الناس ساعة النداء لا بترتيب مقاماتهم، ولكن بترتيب إجابتهم للأذان، فالذي سمع الأذان وبادر متوجهاً يذهب أولاً.

كل هذا يدل على أننا جميعاً نصدر عن أمر واحد ونهي واحد، فلا تعالي لإنسان على إنسان.

وحين يكون الإنسان عبداً للَّه تعالى يكون غيره عبداً للَّه أيضاً. ويقولون دائماً: «عبدُ غيرك حرٌّ مثلك»، حتى في البشر، لو أن إنساناً عنده عبد، هذا العبد عندك أنت عبد فقط، أمَّا صاحبك فلا يقول له أنت عبد؛ لأنه عبد لغيره.

وكذلك الإنسان، إذا ما استحضر عبوديته للَّه وعبودية غيره أيضاً للَّه تعالى مُنع مبدأ التعالي في الأرض.

المساواة في الصلاة والحج

إن الصلاة حين ندعى إليها نذهب جميعاً، لا بأقدارنا في ذواتنا، ولكن بأقدارنا بالنسبة لمنهج اللَّه، فالذي يُسرع خُطاهُ ساعة يسمع النداء إلى المسجد، يذهب أولاً ليجلس في الصف الأول، ولا يزاحمه من يأتي بعده، ويمتنع على المسلم أن يتخطى الرقاب ليصل إلى صف لم يؤهله زمنه له[١]، وبعد ذلك تكون أقدار الناس واحدة، فالعظيم يراه من دونه في حركة الحياة، وهو ذليلٌ بين ربه، وساجدٌ بجبهته مثله، وضارعٌ إلى اللَّه دعاءً ورجاء.

إذن.. فالعظمة والأُبَّهة خارج المسجد انتهت، وكل واحد منا شهد الغير على مشهدٍ من الذلة لإلٰه واحد. حين يراني من هو أعظم مني في حركة الحياة خارج الصلاة وأرى من دوني يراني مثله؛ استطرقت الحياة، واستحيى الإنسان بعد ذلك حين يخرج من المسجد أن يُظهر عليه التعالي؛ لأنه سجد لمن سجد له، وركع لمن ركع له، وبكى لمن بكى له، وتضرع لمن تضرع له. إذن.. فالمساواة هنا واحدة، وما دامت المساواة واحدةً فإن مبدأ الاستغناء والتعالي في الخلق لا يتأتى.

وكأن الحق سبحانه وتعالى يريد بذلك في ركن الصلاة أن يُعلن ذلك التساوي، ولكن إعلان التساوي في الصلاة يقولون إنه إعلان بيئي، يعني: كل جمعة في مسجد من المساجد رأوا بعضهم البعض في عبودية وضراعة وخضوع وذلة للَّه تبارك وتعالى.

ويريد اللَّه أن يصنع لهذا الاستطراق ليس بيئة محدودة، بل بيئة عالمية. فعالمية الاستطراق لكل أجناس أهل الأرض؛ الأمم القوية، الأمم الضعيفة، الغني،

---

(١) روى أبو داود [١١١٨] والنسائي في السنن الكبرى [١٧٠٦] وأحمد في المسند [٤/ ١٨٨] وابن حبان في صحيحه [٢٧٩٠] واللفظ له عن عبد اللَّه بن بسر رضي اللَّه تعالى عنه قال: «كنت جالساً إلى جنب المنبر يوم الجمعة، فجاء رجل يتخطى رقاب الناس ورسول اللَّه ﷺ يخطب الناس، فقال له رسول اللَّه ﷺ: «اجلس فقد آذيت وآنيت». وقال الأرناؤوط: إسناده صحيح على شرط مسلم. وهو عند ابن ماجه [١١١٥] عن جابر رضي اللَّه تعالى عنه، وصححه الألباني.

الفقير، صاحب الجاه، هذا استطراق يتأتى في الحج الذي نحج إليه وقد نُسيت أقدارنا. ولذلك يُربِّي اللّه تعالى فينا مقومات هذا الاستطراق فيقول: إنكم تختلفون في بيئتكم، وتختلفون في هيئاتكم، وتختلفون في لباسكم. فكل واحدٍ يحدد مكانه في مجتمعه وهندامه ولباسه ونوع الأقمشة ونوع التفصيلة، ونوع الهيئة التي عليها: مغسولة جيداً أم لا، مكوية أم لا... وهذه الهيئة تختلف فيها مقامات الناس، فيريد اللّه أول كل شيء في الاستطراق أن نخلع هذه الهيئة جميعاً، وأن نلبس لباساً واحداً لا نختلف فيه أبداً، حتى نطرح أول مُقوِّم لهيئة الإنسان؛ لأن من الذي يعطي النعمة للإنسان، أهو ماله الذي في البنوك، أو ماله الذي عنده في الخزانة؟ أهي ضيعاته. أهي عماراته؟ هل سأحمل العمارات أو الشيكات وأقول للناس ها أنا ذا؟ بالطبع لا. إنما الذي يبين مكانة الإنسان في مجتمعه هيئته، فنقول له: أول شيء في الهيئة أن تنتهي حتى تفصيلها: لا تتفصَّل ولا تتخيط، ليس فقط قماشها، لا، ويأتي بالإزار والرداء، كلنا بإزار ورداء يكاد يكون كله شكلاً واحداً ويكاد يكون كله نوعاً واحداً، فإذا ما لبسنا لباساً واحداً انتهت أوَّل مظهرية من مظاهر التمايز والتعالي بالهيئات والبزَّات.

وبعد ذلك يخرجه اللّه مما ألف: من أهلٍ ومن ولدٍ، ومن مالٍ، ومن بيته ومن حياةٍ رتيبة، ومن وسائل مرفهة في تنقلاته، كل هذا يخرجه منه.

وبعد ذلك يعلمه أدب الجوارح. فيقول له أنت كنت حراً في أن تتزين، وأن تتطيب، وأن تقصر شعرك، وتقلم أظافرك. لا. التزم هنا، أنت فقط تتزين وتتطيب وتستحم إلى أن تحرم، وقبل ذلك أنت حُر في أن تُرجِّل شعرك وكذا... الآن إياك أن تفعل شيئاً فتسقط شعرة.

انظر إلى الأدب مع الذات، إياك أن تسقط شعرة منك، إياك كذا، إياك كذا. أدبٌ في تكوين الذات.

وأدب مع الجماد، وأدب مع النبات: إياك أن تقلع هذه الشجرة. إياك أن تصطاد هذا الحيوان. وأدبٌ مع الناس: إياك أن تجادل، إياك والفسوق، فأخرجه اللّه تعالى من كل مقُومات تكوينه، ومقوماته: وطناً، أهلاً، مالاً، هنداماً، كل هذا خرج منه.

إذن.. هو أدب مع الكون: بداية مع النبات يقول له: إياك أن تقلع هذه الشجرة، اتركها، إياك أن تصطاد هذا، إياك أن تقاتل أحداً، إياك أن تجادل أحداً، إياك... كل هذا لأنك ذاهب إلى بيت اللّه.

ما هذا؟ ما هذا القالب الجديد الذي يأتي للإنسان الذي استكمل كل مقومات الحياة؛ لأنه ما أصبح مستطيعاً للحج إلا وعنده كل شيء نفقة إلى أن يعود، فحينئذ يقول له: تأدب إذن هنا.

وبعد ذلك يذهب إلى البيت في أدب من أرقى أنواع الأدب: مجموعة أحجار، اللَّه تعالى نصبها في مكان البيت وقال لك: طُف حولها، وحج منها، قَبِّل هذا الحجر، أو يكفي أن تسلِّم عليه بإشارة. إنما رغبتك أنك لا بد أن تلمس الحجر، فتحاول وتعافر حتى تلمسه، وإن لم تلمسه تقول لا بد أن أطوف مرة ثانية حتى ألمسه!! فما هذا الحجر؟!

إنك لو نظرت إلى أجناس الوجود لوجدت هذا الجماد هو الجنس الأدنى في الوجود؛ لأن أجناس الوجود إن تفاوتت؛ فإنما تتفاوت بقدر نقصانها في الخصائص، الإنسان لماذا هو السيد في هذا الكون؟ لأنه متميِّز عن الأجناس كلها بأن عنده فِكر، ميَّزه اللَّه بهذا الفكر عن الحيوان، مع أن الحيوان له أجهزة وله دورة دموية، ودورة كذا؛ لكن ليس عنده الفكر.

إذن.. فأنا أخذت خاصية الفكر، وهو نقص فيه. فصار جنساً أدنى بفقد خاصية الكمال فيه.

والحيوان أيضاً زاد على النبات بالجنس والحركة؛ والنبات زاد على الجماد في النمو، فالحجارة تظل ملقاة ونطؤها بالأقدام، أما النبات فينمو وفيه حياة.

إذن.. فتوجد تعاليات في الأجناس: جنس أدنى، يأتي له نمو فيكون نباتاً، وآخر يأتي له حس وحركة فيكون حيواناً، وآخر يأتي له كل هذا ثم يميزه اللَّه تعالى بالفكر فيكون إنساناً.

إذن فالإنسان هو السيِّد. وما دام هو السيِّد فتحته كم عبد؟ الحيوان عبد ولكن الحيوان عبد وسيد أيضاً؛ لأن النبات يخدمه والجماد يخدمه، إذن فهو عبد لمن هو أعلى منه، سيد لمن هو أدنى منه؛ لأنه يأكل من النبات، وكل الخصائص التي في الأرض تنفعه.

والنبات: سيد، ولكنه عبدٌ للحيوان وعبد للإنسان، وسيِّدٌ للجماد؛ لأن الجماد هو الذي يعطي له غذاءه وعناصر تكوينه.

والجماد: عبد للكل. إذن.. فهو أدنى منزلة في الوجود.

فاللَّه سبحانه وتعالى أدَّبني مع نفسي حركة وهنداماً. وأدَّبني مع النبات، لا

أقتلعه، وأدَّبني مع الحيوان فلا أصطاده، وبقي أن يؤدِّبني مع الجماد، فجعل حجراً يوضع في الكعبة، ويقول لي: لا يصلح حجك أو عمرتك إلا بأن تسلم عليه، أو تقبِّله أو تلمسه، أو حتى تشير له فقط!!

إذن . . الإنسان الأعلى يخضع هنا لهذا الحجر الذي هو الأدنى؟!

نعم . . فهذا هو الاستطراق، انظر كيف أنزل اللَّه الإنسان من كبرياء سيادته إلى أدنى العبيد والمخلوقات وهو الجماد.

إذن . . فالإنسان استوفى كل الاستطراقات مع الكون، ويصبح عظمة كل فرد في الكون بأداء مهمته، لا يوجد شيء عظيم بذاته، ولكن عظيم بأداء مهمته.

وما دام بأداء مهمته، فمن له اختيارٌ في أداء مهمته؟

إذن . . فلا تعالي لحيوان على نبات، ولا لنبات على جماد، ولا لشيء من هذا، إنما التعالي من الإنسان على هذه الأشياء.

ولذلك في الحج ـ وهو الركن الخامس الخاتم لأركان الإسلام ـ يقول له: الزم أدبك والزم حدَّك وانزل من سيادتك إلى أن تقف حتى تستلم هذا الحجر.

وحتى لا تفهم إنه حجر لأنه حجر؛ لا . . فكأن مراد اللَّه تعالى أن ينزل الجنس الأعلى إلى الجنس الأدنى، فأصبح ذلك مشروطاً في صحيح الإيمان.

إذن . . فالجنس الأدنى أصبحت منزلته هنا والجنس الأعلى سواء، ولكن إياك أن تفهم أن الحجرية هنا مَلْحظ؛ لأن الذي أمرك هنا أن تستلم هذا الحجر وتقبله أو حتى تشير إليه إن لم تتمكن قال لك ارجم حجراً آخر، حتى يخرج من ذهنك أن هناك سيادة للحجر كجنس.

فتصبح كل المسائل منتهية في أنه لا جنس أفضل من جنس إلَّا فيما يُؤدي به كل جنس مهمته. وكل جنس من الأجناس ما عدا الإنسان يؤدي مهمته، فلا تعالي بينهما أبداً، لم نر أبداً شجرة تفاح تعالت على شجرة طماطم! ولم نر أبداً طاووساً تعالى على أرنب، كل شيء في الوجود لازمٌ حَدَّ أدبه مؤد لمهمته إلا الإنسان: ﴿كَلَّآ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَيَطْغَىٰٓ ۝٦ أَن رَّءَاهُ ٱسْتَغْنَىٰٓ ۝٧﴾ [العلق]. فإذا ما ذهب الإنسان وطاف حول الكعبة حينئذ يستشعر ذُل العبودية، ويلزم حده.